الناشئة والتراث (أبعاد وإضاءات)

د.نادية غازي العزّاوي

في الزمن العولميّ الماحق لخصوصيّة الملامح الثقافية والحضارية للشعوب ، وإذ يراد للجميع أن يفكروا ويتكلموا ويتصرفوا بطرائق متشابهة طبق الأصل للأنموذج الغربي ،وإذ تجنّد وسائل الإعلام والاتصالات لهذه الغاية الخطيرة ،وإذ تجري في بلداننا عمليات تغريب المناهج الدراسية بحجة التحديث ،تزداد يوماً بعد آخر غربة النشأ عن تراثهم ،ويتعمّق اغترابهم عنه وعن اللغة الحاضنة له ،لغة آبائهم وأجدادهم وقرآنهم ،والمحصلة الحتميّة اضمحلال الانتماء القوميّ والدينيّ ، وضياع الهويّة وصولاً إلى القطيعة التامة ، لتنشأ أجيال بتراء لاتفقه شيئاً من تاريخ أمتها التي تنتسب إليها ، ولاتقدّر حقيقة منجزها ودورها الحضاريّ المشرّف الذي اعترف بفضله الغرب قبلنا .

ونواجه في مدارسنا وجامعاتنا يومياً صوراً مؤسفة لهذه الكارثة ،تفضح ضآلة معلومات الطلبة عن تراثهم ،وهشاشة انتمائهم إليه وإيمانهم به (١) ،وتلكؤهم في قراءته واستيعاب مضامينه وتدبّر دلالاته ،وتذمّرهم من نصوصه ،وسخريتهم من رموزه وأعلامه ،وإحساسهم بعدم جدوى دراسته .بينما هم على الجانب الآخر صرعى ثقافة الغرب ،مع إقبال متزايد على تبني أفكاره وتقمّص شخصيته وسلوكه . واختلال المعادلة في مثل هذه الحالة متوقّع ،فوعي الموروث وتمثّل قيمه هو الذي يمنح المرء التوازن الطبيعيّ ،ويعصمه من الانزلاق نحو الانبهار والمحاكاة الصماء مهما كان ضغط الظروف والموجّهات ،لأنّه يزوّده بخبرات ومعارف سابقة ، تحقّق له الامتلاء الفكريّ ، والاستقرار الذهنيّ والغنى الثقافيّ ،وهي أدوات كافية جداً لمنحه الثبات ، وبما يحول دون انسلاخه الفكريّ. إنّ اختلال المعادلة عند الناشئة يستلزم منّا استنفار أقصى الإمكانات والجهود لإعادة العلاقة الصحية السويّة بين الأجيال الجديدة وتراثها ، وإلاّ وقعنا في المحظور : موت التاريخ والانهيار الكامل ، بأن نستبدل بأصالة وجودنا وجوداً ممسوخاً معوّقاً غير قادر على العطاء الأصيل،والاكتفاء بالمحاكاة أواستهلاك مايقدّمه الآخر لنا .

فكيف السبيل إلى ذلك والتحديات حولنا كبيرة، والصراع الحضاري بين المركز والمحيط على أشده، وغير متكافئ مادياً وتقنيّاً؟ فضلاً عمّا يتعرّض له الإسلام اليوم من حملات منظمة لتشويه صورته والافتراء عليه، وتزييف ملامح الحضارة العربية الإسلامية. و الناشئة في هذه المعمعة هم أول الضحايا ،لأنهم مهيّؤون تماماً لأنّ تنطلي عليهم بسهولة أوراق التزييف، وكيف لا وقد أفرغوا من الوعي والعلم بتاريخ أمتهم وإنجازاتها، وكما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

لاشكّ في أنّ الحلول ليست يسيرة ولا مضمونة النتائج ،وليست فرديّة بل جماعيّة تضامنيّة مؤسسيّة ، تبدأ من البيت، وتنفتح على نبض الشارع، وقيم المدرسة والجامعة، و ممارسات وسائل الإعلام، ليست سهلة، ولكنْ لابدّ من البداية الصحيحة الجادة، وتأخير ساعة الصفر تواكل وخور وإسهام في الجريمة. من هذا المنطلق تحاول هذه الورقة أن تقدّم إضاءات معينة تراها مفيدة :

- ينبغي أن نعيد النظر من جديد في بعض المفاهيم الإشكاليّة ، التي تدارسناها من قبلُ ،نعيد النظر فيها في خضم التحولات العنيفة التي تعصف بنا في البلاد العربية والإسلاميّة ، ليتاح لنا تطبيقها بسلاسة ، ومنها مفهوم(التراث) ،ولنتفق بدءاً على أنّ التراث ليس ركام الماضي المفروض أو المتسلّط علينا ،الذي يشلّنا ويحول دون انطلاقنا كما يحلو للبعض أن يظن أو يدّعي ،ولنتفق أيضاً على أنّ التراث ليس الماضي المنقطعة أسبابه عنّا ، والنافذ الصلاحيّة كما قد يتوهّم البعض ،نعم هو الجذر الذي انبثقنا عنه ، الجذر الحامل لنسغ الحياة ،

ومتى استغنت الشجرة مهما نمت واستطالت عن جذورها ؟فهو كامن على نحو خفيّ و معلن ليس في كينونتنا لحظة تشكّلها فحسب ،بل هو كامن وفاعل في صيرورتنا وفي تحوّلاتنا أيضاً ،مهما نافسته عوامل أخرى من مستجدات الواقع حولنا . والتراث ليس هو الأصول اللغويّة والدينيّة التي ارتشفنا جرعاتها الأولى مع حليب الأمهات ، وراح تنمو معنا ممزوجة بنصائح الآباء وإرشادات المعلمين ،ثم اتسعت علوماً ومعارف حصلنا عليها من بطون الكتب فحسب ،إنه الخارطة الجينيّة الفسلجيّة والنفسيّة والاجتماعية" المركوزة في طباعنا وميولنا وطريقة تفكيرنا وأحكامنا ، وعينا ذلك أم لم نعه ، الخارطة التي تميّز قسمات وجوهنا و لون الجلد وهيئة الشَعر ومزايا الجسد الأخرى، وفي عاداتنا في المأكل والمشرب ، وفي حالات الفرح والغضب ،وفي أمزجتنا فيما نحبّ أونكره ،إنّه الوجود غير المرئيّ الذي يدبّ داخل وجودنا المرئيّ ، شئنا ذلك أم أبيناه . فأنت حين تسير اليوم في أزقّة البصرة – مثلاً– لاتخطئ في الوجوه الجديدة الملامح القديمة التي حدّثك عنها الجاحظ في القرن الثالث الهجريّ : أصواتهم ،نوادرهم ،خفة الظل ،طرق فلاحتهم وصيدهم ،كما لاتخطئ وأنت تتأمل المومياءات في متحف القاهرة الملامح التي تطلّ عليك في الشوارع : القامات السمر الفارعة ، الوجوه المستطيلة ،القدرة الفذة على العمل الشاق والتحمّل ، وحين تتجول في مدن الجزيرة العربية ،سيصلك لامحالة رجع الأصداء المنبعثة من مؤلفات العلامة الراحل حمد الجاسر وهويعيد تمثّل تاريخها الخالد وأماكنها وما قيل فيها من أشعار ورحلات . وعي التراث والتمسك به اليوم ليس ترفاً فكرياً ،أوجدلاً بيزنطياً ، ولكنه ضرورة ملحّة ،ضرورة وجود وبقاء،ومقاومة ضد كل أشكال التلاشي. يقول المؤرخ العراقيّ د. عماد عبد السلام رؤوف وهو يتحدث عن محلات بغداد القديمة : لابدّ من ((تعريف أبناء هذا الجيل ،الذي شغلته متغيرات العصر،بقيمة الأرض التي يقفون عليها ،وجسامة ما يختبئ تحت أديمها من ذكريات ،وتقديم مفاتيح لا أكثر ،يمكنهم إن هم دوّروها في أقفال الماضي ،أن يكتشفوا أن هذا الماضي مازال حياً يحيط بهم ،وراء قشرة رقيقة من الحاضر الذي يعيشون ،بل إنّه يتنفس في دواخلهم .ولا يقف الأمر عند محلات بغداد القديمة وحدها ،فإنّ محلاتها الجديدة نفسها تقف على أرض شهدت من التاريخ ما يكفي لأنْ يملأ مجلدات كاملة ،فالتلال الأثرية ،والأنهار المندرسة ،وبقايا المستوطنات البائدة ،والقبور المنتشرة ،كلها تدلّ على أنّ تلك الأرض عانت الحضارة عصوراً عدة قبل أن تعانقها مرة أخرى في العصر الحديث)) (٢) ،وهكذا الحال مع مدننا العربية العريقة الأخرى.وعلى هذا النسق عاشت الأجيال في هذه الأمة وماتت تتوارث مواد هذا النسغ كابراً عن كابر . ثم حدثت الفجوة من منتصف القرن العشرين الميلادي ،واتسعت حتى صارت قطيعة بين هذا النسغ الحيّ المتحرّك فينا ،وبين النشأ من أبنائنا وأحفادنا .

- مما يستلزم العمل الجديّ لإزالة عوامل الاغتراب النفسي بين النشأ والتراث ،وتحفيز عوامل الإعجاب به كخطوة ضامنة للإقبال على تعلّمه وفهمه وتذوّقه . وبالتأكيد هي لحظة سابقة على دخول المدرسة ، ففي بيت العائلة تكون البداية ، كثير من التفصيلات الدقيقة التي نظنها عابرة قادرة على خلق لحظة اهتمام تتحوّل إلى ألفة مبكرة بين الطفل والموروث ، الألفة الممزوجة بالاحترام والهيبة ، تفصيلات كثيرة : مكتبة الجدّ في إحدى الغرف ،ألبومات الصورالقديمة ،مسبحة العم المعلقة على الجدار ،حكايات الجدة عن مصباح علاء الدين وحوت السندباد وألاعيب علي الزيبق ، تلاوة قرآنية مسجّلة تستفتح العائلة بها صباحاتها ، أهزوجة قديمة ترددها العائلة في مناسبة من المناسبات .... إلخ ، وهكذا يظل الموروث حياً غير منسيّ أومفقود في النفوس .كانت جدران بيوتنا عامرة بصور الراحلين من الأهل جزءاً من ذاكرة متصلة يأكل الأحفاد ويشربون تحت أفيائها ، ويعيشون ويتفاعلون معها ، أما

جدران بيوتنا الفارهة البراقة اليوم حيث تتدلى المنحوتات والستائر الأنيقة فخاويةمن أية ذاكرة. ودعْ عنك من يستهزئ بأنّ أطفال (الآيباد) و(النت) ماعادوا يلتفتون إلى مثل هذه الترهات ، وأنهم مشغولون بأوطانهم الافتراضيّة الجديدة ،التجربة خير برهان على بطلان هذه الادعاءات ،فما زالت أسرار الدماغ البشريّ والمخيلة أقوى من أحابيل ال(يوتيوب) و(تويتر) و ال(فيس بوك) – ولله الحمد- .

- التركيز على دور التعليم في إنعاش الصلة بين الناشئة وتراثهم ، وللمعلم دور مركزيّ خطير في هذه المهمة ، المعلم المعلم وليس النسخ المشوّهة منه التي تضجّ معاهدنا الدراسية بهم ، المعلم الذي يؤمن بخطورة دوره في المجتمع ،والمزوّد بعدّته العلميّة الكافية للنهوض بمهمته الرسوليّة الجبارة ،المهمة القادرة على بناء أجيال سويّة في المجتمع ، أوالفشل فتنشأ أجيال مهزومة فاقدة الثقة بنفسها وتاريخ أمتها ،أجيال مدحورة تعيش النكوص والخذلان حتى النخاع،ومع المعلم المناهج الدراسية وطرائق التدريس ،والنتيجة واحدة من اثنتين : إمّا أن ننجح في تأسيس علاقة صحية بين الطرفين ،وإمّا أن نخفق فنكون مسؤولين عن خلق حالة من النفور والجفاء بينهما إلى الأبد . وقدّم بعض الباحثين المعاصرين آراء سديدة في هذا الجانب ،مستفيدين من خبراتهم الميدانيّة في التعليم بمختلف مراحله ، فقد عزا د.محمود الطناحي هذه الحالة من الضعف عند أبنائنا – حتى في أقسام الاختصاص في الجامعات – إلى أربعة أسباب :
١- هجر الكتاب القديم . ٢- طغيان المناهج الغربية وما تبع ذلك من الجرأة على الدرس التراثي والاستهانة به .
٣- العناية بالتنظير وإهمال التطبيق
.٤- إغفال جوانب حيوية أساسية في التعليم ،وبخاصة في تعليم اللغة(٣) كالتحفيظ وسلامة الإلقاء والتحليل الشامل للنصوص الذي يربط الماض بالحاضر ،ويستلهم فعاليات اللغة وعلومها المتداخلة . إنّ هذه الأسباب الرئيسة وما يتفرع عنها من دقائق مسؤولة إلى حدّ كبير عن إحساس الطلبة بأنّ التراث حالة متحفيّة – إذا صحّ الوصف- جامدة ،يضطرّون للمرور عليها بضع ساعات ضمن الجدول المدرسي الأسبوعيّ ،ثم يتحرّرون منها بقية اليوم ،منصرفين إلى شؤونهم الخاصة العزيزة عليهم : اللعب في النادي ،مشاهدة السينما ،متابعة النت ،ومما يرسّخ لديهم هذا التصوّر أكثر وأكثر إيحاءات الكبار من حولهم :فالمعلم يتلعثم وهو يقرأ قصيدة المتنبي ،والأم تتأفف من تسميع ابنها أحداث الثورة الفرنسية في كتاب التاريخ ، والمذيعة تخطئ بشكل شنيع في قراءة الآية القرآنية ،والمدرب في النادي يسخر إن سمع أحدهم يتمثّل بمثل قديم جرى على لسان والد صديقه يوماً، ومايقرؤونه في مواقع النت يكرّس لديهم هذا النفور ويحوّله إلى كره وعداء،ولايكفّ مثقفونا المتفلسفون عن الزعيق في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة من أن مايحتاجه الشاب هو تطوير مهاراته اللغوية في ال(جات) وليس قراءة فصول من رسالة الغفران أو معلقة امرئ القيس .

وإذاً لاداعي للاستغراب، فكل ما تقدّم لا يؤسّس إلاّ لشيء واحد هو: نزع الحبل السريّ مع الجذر الأول . يقول أحد الأكاديميين عن هذا الشرخ في التعليم والتوجيه التربويّ وآثاره التدميريّة : ((والأوهام صوّرت لنا أنّ مبادئ البحث في ميدان الأدب تبدأ من الاطلاع على الآداب العالميّة ،والتعمّق في دراسة الشعر والنقد الغربيين،بمقولة أنّ هؤلاء قد تناهوا إلى قمم الإبداع في أدبهم وفنهم ،وأنّ مناهجهم النقدية ....هي الغاية والمثل الأعلى الذي يجب أن نقيس عليه أدبنا العربيّ قديمه وحديثه ......وأمّا علمنا ودرايتنا بتراثنا الأدبيّ المستمدة من مصادره الأصلية فهو حسو طائر ....فقد كنّا نشعر بالضجر والضيق إذا دُفعنا لمطالعة كتب التراث ،إذ إنّ فهمه وقراءته على الصحة تقتضي منّا دقة وصبراً وجلداً وحفظاً ونظراً فاحصاً ،ممّا لم نألفه ولا نستطيعه ،ولأنّ الانسان عدو ماجهل ،صرنا شيئاً فشيئاً نتحول إلى الهجوم على تراثنا العظيم واصفيه بالجمود

والتحجّر)).(٤)

• إنّ بعد المسافة المكانية والزمانية بين أحفادنا وموروث أجدادهم ،وانقلاب القيم والأفكار في وقتنا الراهن ، يجعل مهمتنا مضاعفة ،إذ ليس المطلوب حشر أدمغتهم بالمعلومات والأسماء والأرقام ، فما أسهل هذا بل هو النمط السائد في دروسنا ومحاضراتنا ،نحن نطمح إلى تأسيس علاقة وجدانيّة حميمة بين الطرفين ،تجعلهم يقبلون بمحبة على موروثهم ويتفهمون انجازات أسلافهم ،وهي خطوة لابد منها تسبق دراسته دراسة علمية ، قادرة على فرز الإيجابيات والسلبيات في عناصر هذا الموروث ،و نقده نقداً موضوعياً يكشف مكامن القوة فيه لتنميتها وتفعيلها ،وفرز مواضع الضعف فيه أيضاً لتلافيها ،والنقد الموضوعيّ هو من يكفل الوصول إلى الخطوة اللاحقة ، أعني تخطي المنجز القديم والشروع بمنجزات جديدة ،لأننا لانريد أن يقف النشأ عند حدود تقديس التراث فالتقديس جمود،ولاعند حدود التعصب الأعمى لصفحات أو مناطق منه ،كلا الموقفين يدلّ على قصور فكريّ ، نريدمن النشأ أن يستوعب التراث ويهضم مافيه، من قيم التسامح والمحبة والرفعة والغيرة والإباء ،يستوعب المتحقّق ليزيد عليه ، أن يتخطى ذلك تخطياً مدروساً مبنيّاً على الإدراك المعمّق والرصد السليم ، وليس الاستهانة التي تفضح جهلاً مخزياً ،فأول خطوات تميز الأبناء التعرّف إلى آبائهم تعرّفاً وثيقاً مبنيّاً على حب وإكبار ،ولكنه إكبار لايدلّ أبداً على أنّ الابن سيكون نسخة مكرّرة من أبيه . ولكي نحقّق هذه الغايات الطموحة لابدّ أن نتجاوز طرائقنا التقليدية البالية في التعليم ،التي فقدت قدرتها على الجذب والتأثير في عقول من صاروا على تماس مع أحدث التقنيات البصريّة والسمعيّة ،طرائقنا البالية في قراءة النصوص على نحو جاف أعزل ،متناسين المهمة الأخطر وهي :استحضار الجو النفسي والعاطفي ، الجو الإنسانيّ المرتبط بالنصّ ،وهو التحديّ الأصعب ،وبخاصة في ظل هيمنة موروث الآخر على أبنائنا : إذ كيف تسحب الصبيّ من عوالم (سبايدرمان) المثاليّة المهيمنة عليه بالصوت وعنف الحركة وبريق الألوان والخدع البصرية التي تحبس أنفاس الكبار قبل الصغار ، إلى عوالم حكايات ذلك الطفل القرويّ البصير في قصة(الأيام) ،وكيف تشدّ ذهن حفيدتك وهي منغمسة بالأحداث الدراميّة الساخنة في بيت (سندريلا) أو (أليس في عالم العجائب) لتقرأ عليها حكايات (كليلة ودمنة) ،وكيف تقنعهم بالانتقال من أغنية (جمجم ستايل) إلى قصيدة بدوية ل(جميل) وهو يتغزّل بحبيبته (بثينة)، ويالها من مهمة جسيمة غير متكافئة !! تتطلّب منك تصعيداً في حجم الإثارة ،وتفنناً في الأداء والإيصال ،وجهوداً استثنائية في تطويع حاجز اللغة على اختلاف استعمالاتها الأسلوبية بين الأمس واليوم ، لتقريب معطيات التجارب القديمة إلى مداركهم الغضّة ،وجعلهم قادرين على استشعار ما فيها من مشاعر جيّاشة ،ومعاني إنسانيّة سامية ،هي زبدة الوجود البشريّ مهما اختلف الزمان والمكان والدين والعرق. وإنها لمهمة جسيمة فعلاً، ولكنها ليست مستحيلة إذا صدقت النيات ،وصحّت العزائم ،وتوافر الإخلاص.

وبعدُ فإنّ الخلل ليس في الناشئة بل فينا نحن الكبار ،إذ فرّطنا بركائز هويتنا ،وأضعنا مؤشّر البوصلة السليم ،الخلل في طرائق تربيتنا وتعليمنا،في أدواتنا ووسائلنا البدائيّة ،وإلاّ فهم يرددون في برامج المسابقات الغنائية أحلى قصائد فيروز وعبد الوهاب و أم كلثوم ، دون أن يجدوا حاجزا نفسيّاً أولغويّاً صاداً عنها ،ويقبلون على مشاهدة الأفلام والمسلسلات والمسرحيات القديمة دون أن يفقدوا المتعة بها،والطلاب الجدد المقبولون في أقسام الرسم والنحت يبدون مهارات فائقة ،ممزوجة بشعور بالارتياح والرضا وهم يحاكون رسم لوحات فان كوخ أو بيكاسو أو منحوتات أنجلو ،كجزء من التدريب والتمرين ،ومشاعر الزهو والتميّز لاتفارق نظراءهم في معاهد الموسيقى والتمثيل وهم يؤدون أدوارهم في مسرحيات شكسبير وتشيخوف وسعد الدين وهبة وسعد الله ونوس ،مع أنّ مسرحيات الأخير خاصة مستلهمة من مقامات الهمذانيّ وليالي

أبي حيان التوحيديّ وعوالم الشطار والعيّارين !!

الإحالات والمراجع:

(١) تنظر عن الانتماء للثقافة والإيمان بها :رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ،محمود محمد شاكر في مقدمة كتابه (المتنبي) ،دار المدني ،جدة،مكتبة الخانجي ،القاهرة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م :ص٢٨. وتنظر أيضاً الصفحات :٦٨ ،٧٣،٧٤.
(٢) الأصول التاريخية لمحلات بغداد ،د.عماد عبد السلام رؤوف ، ط١،مكتبة المثنى ،بغداد ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م :ص٩- ١٠.
(٣) في اللغة والأدب (دراسات وبحوث) ،د.محمود الطناحيّ ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٢م: ٢/٥٠٦- ٥٢٤.
(٤) مقدمة المحقق د.عبد الله حمد محارب لكتاب (الموازنة بين الطائيين)للآمديّ : ج٣/ القسم الأول : ص١١-١٢.